حب في الثورة السورية

وندي بيرلمان

مترجمة من الانجليزية -- Love in the Syrian Revolution

فتحت غيداء لي الباب ، كانت حاملاً في شهرها الثامن ، قبلتها القبلات المعتادة على وجنتيها وخلعت حذائي عند الباب. كنت آنذاك في الأردن أتحدث مع اللاجئين السوريين عن آرائهم الشخصية حول العنف الذي أسفر عنه قرابة التسعين ألف قتيل وترك ربع السكان مشردين. كنت أرغب في الحصول على بعض الصور للركام والدماء لمعرفة كيفية تطور هذه الحرب من مظاهرات سلمية. كنت أرغب في الكشف عن ماهية هذه الحياة الممزقة التي حولت المجتمعات إلى مدن أشباح ، وعن الثورات التي صنعتها الشخصيات التي أبدت الشجاعة و الالتزام وحتى الحب.

قادتني غيداء إلى الأريكة، وسألت زوجها بفظاظة: "ماذا تريد أن تعرف؟" ربما لا تعلم أنني أتكلم اللغة العربية، أو ربما أنها ذلك النوع من الاشخاص الذي يفصح مباشرة عما في عقله.

"أخبرها عن الثورة"، تجاهلها حمزة". أخبرها كيف ألتقينا" .

*****

كانت غيداء امرأة نحيلة ذات وجه عاجي وابتسامة ماكرة " رأيته على شاشة التلفاز وكتبتُ له على الفيسبوك " لقد ذكرَت أمراً واقعياً . لم تكن غيداء جريئة دائماً فلقد ترعرعت في حمص ثالث أكبر المدن السورية حتى أنها كانت فتاة خجولة جداً على أن ترفع يدها للمشاركة في المدرسة. كانت أيامها مقسومة بين المدرسة واللعب مع أخيها دان الذي يصغرها بسنتين فقط. انه صديقها المفضل وأخاها في نفس الوقت. غيداءُ كانت تلميذة ذكية وقد توفي والدها عندما كانت في الرابعة من عمرها فلم تستطع عائلتها أن تتحمل نفقات إنهاء تعليمها. وفي عمر الرابعة عشر كانت مخطوبة لرجل لم تره إلا مرة واحدة.

بعد أسبوع واحد من زواجها، بدأ زوجها يضربها. كانت تخشى أن تخبر أحداً عن اعتداء زوجها عليها، إلا أن عائلتها علمت الأمر بعد مرور اشهر قليلة. و بعد خمس سنوات أخرى من الوعود الكاذبة أخذت غيداء ابنتها ذات الأربع سنوات وابنها ذو الشهران وتقدمت للحصول على الطلاق. لكن في غضون تلك الفترة الباردة استجمعت غيداء قواها وقالت وهي تصب الشاي في كؤوس صغيرة " تعلمت بإنني إذا أردت شيئا فيجب عليّ أن أحصل عليه بنفسي" ثم أضافت مبتسمة "أو أكون فخورة في بذل جهدي في محاولة الحصول عليه".

انتقلت غيداء للعيش مع والدتها في منزل العائلة الذي تتشاركه مع دان وزوجته وأولاده. ومع مرور السنين، حصل بعض أشقاء غيداء على عمل في الخارج وأصبحوا يرسلون المال لدعم بقية أفراد العائلة. استطاعت غيداء شراء المنزل الخاص بها وقامت بشراء الاثاث قطعة تلو الأخرى، مهيئةً حياةً مستقلة بحيث يمكنها رؤية أطفالها يذهبون الى المدرسة وربما الى الجامعة. أبدى الكثير من الرجال اهتمامهم في خطبتها ولكن غيداء ركزت اهتمامها على أطفالها. قالت غيداء مستعيدة ذكرياتها: "ثم بدأت الثورة وشاهدت حمزة على شاشة التلفاز".

*****

حمزة، ذو الشعر الطويل المكبل بأقفال الترهيب المتكرر الذي يبدو كل جزء منه ثائر. هو أحد المذيعين على قناة تلفزيونية معارضة ممن شجعوا هذه الحركة ضد بشار الأسد منذ بداياتها في آذار 2011. فأرسل أنصار النظام له تهديدات بالقتل في حين أمطر المعارضون له الثناء، ووصلت الرسائل عبر الفيسبوك من قبل العشرات ولا بد أن رسالة غيداء ضاعت بين الرسائل.

كان نقل المجريات عبارة عن مجرد مرحلة أخرى في الحياة السياسية للمعارضة. و كان والد حمزة عضواً في جماعة الأخوان المسلمين أكبر حركة معارضة لحافظ الأسد والد الرئيس الحالي الذي بعد أن استولى على السلطة في سوريا عام 1970 وصرح في عام 1980 بأنه من ينتمي لجماعة الأخوان المسلمين ستكون عقوبته الأعدام، لذلك فرت عائلة حمزة بعد عامين من البلاد، وقام الأخوان المسلمون بحركة تمرد في حماة، فكان رد الأسد بتدمير المدينة وقتل ما بين 10.000 إلى 40.000 شخص. أنذرت المذبحة الأجيال القادمة بكيفية رد النظام على منافسيه.

توفي الأب الأسد في عام 2000 وتم تعديل الدستور فورا ليتيح لإبنه البالغ من العمر 34 عاما بتولي السلطة. تعهد رئيس الدولة الجديد بالقيام بالإصلاحات فتأمل الناس ومن بينهم حمزة بغدٍ أفضل. قدم حمزة طلبا بالعودة إلى سوريا وتمت الموافقة على طلبه و عاد للمرة الأولى منذ أن كان في ال13 من عمره.

أراد حمزة أن يتذكر الأشهر الثلاثة التي قضاها في سوريا باعتبارها أثمن شيء في حياته. فلقد اكتشف من جديد أقاربه البعيدين والمناظر الطبيعية التي يألفها والمنزل الذي بناه والده بيديه. " إن مذاق التفاح والخوخ أكثر حلاوة من مذاق أي شيء آخر، كما أن الماء اكثر نقاءً " تذكر حالماً ، وأخيراً شعر بأنه في منزله.

ومع ذلك فإن الوضع السياسي الذي عاشه كان لا يقل أستبدادية عن الذي أعاق نمو آفاق السوريين منذ عقود. يستدعيه اثنان من ضباط المخابرات المحلية بشكل شبه يومي تقريباً للتحقيق معه فقط لأنهم يستطيعون ذلك. " وفي أحد الأيام تلقيت إتصالاً من مساعد أحد أغنى الرجال في سوريا" روى حمزة وهو باسط يديه كما لو أنه يحاكي السماء. " الرئيس" لقد علم أن حمزة عاش في أوروبا ويريده أن يكون شريكا له في خطة للإستيراد والتصدير. فنقلوه بسرعة وبشكل مفاجئ إلى حياة فيها الطعام الوافر في فيلل فخمة ورحلات صيد بحضور طاقم من الخدم. منحه رجال الرئيس السيارة التي يريد . قال لهم حمزة: " أنا أُفضلُ الدراجات النارية" فإذا بدراجة جديدة. وتلقى مخابرة هاتفية من ضباط المخابرات الذين تعودوا على مضايقته لكن هذه المرة فقط لدعوته لشرب القهوة. يبتعد الجيران عند رؤية دراجته النارية تقترب، وقيل من دون قصد بأن الشيئ الخاطئ بيد شخص خاطئ مع الكثير من السلطة.

انتهت حياة حمزة المميزة كما بدأت دون سابق إنذار. وبعد أسابيع قليلة، علم بأن أخيه ينتقد نظام الأسد علناً خارج البلاد ثم تلقى مكالمة هاتفية بأن الرئيس يريد رؤيته حالاً.

قال له أحد مساعدي الرئيس محذراً : "من أجل سلامة عائلتك دع أخيك يغلق فمه"

مكالمة أخرى جاءت من ضباط المخابرات " حان الوقت لزيارة أخرى" مستهزئين ومتغطرسين مجدداً.

بدأ حمزة بحزم حقائبه ورأى بوضوح التغيرات البسيطة التي حصلت في سوريا، حيث أنه وبمساعدة القانون لا حدود لأصحاب النفوذ وأن المواطنين لا حول لهم ولا قوة أمام الأعتداء التعسفي. تصرفت بعض العائلات ذو الأتصالات السياسية كما لو أنهم يملكون الدولة من خلال احتكار القطاعات الاقتصادية.

*****

صدمة حمزة الذي سببه الفساد كانت غيداء شيئاً تتوقعه، كان موجودا كالهواء الذي تتنفسه. تلقت هي ودان دروساً لتعلم القيادة ، فاكتشفت أنهم بحاجة إما لإتصالات غير رسمية أو لدفع الرشوى في سبيل الحصول على رخصة القيادة. كان على غيداء أن تدفع الرشوى لكي تحصل على ملف لدعم طفلها. كما و أمرت المحكمة زوجها السابق بأن يدفع شهريا مبلغاً قدره 40$، لكنها حصلت على نصف ذلك المبلغ لمرة واحدة فقط ، وهزت غيداء رأسها قائلة: " يبدو بأنه قد قام برشوة أحدهم لكي لا يدفع هذا المبلغ شهريا و يبدو أنه لا يوجد أي بديل لقبول الاهانات اليومية في سوريا" . كان الأطفال يرددون مادحين الأسد في دروس التربية الوطنية وكان الكبار يتجنبون المناقشة في الأمور السياسية خارج منازلهم وحتى داخلها في بعض الأحيان. قالت غيداء مستهجنةً: " كل شخص يعرف شخصا ما قد اعتقل ولم يسمع عنه أحد أبداً" .

*****

بعد أن فر حمزة للمرة الثانية من سوريا ، كرس نفسه للنضال من أجل حقوق الإنسان في البلد الذي ولد فيه. فتراوح عمله من مهنة جديدة في مجال الصحافة إلى رفع دعاوى قضائية ضد بشار الأسد أمام المحكمة الجنائية العليا، ومع ذلك فقد أحبط الخوف عمله الذي أستحوذ على أبناء وطنه. لا وبل عندما حاول حمزة توثيق شهادات ضحايا عنف النظام وجدهم يخشون التحدث.

أصبح زملاء حمزة كثيري الانتقاد " لا تُضع وقتك" وقال له أحد زملاءه الناشطون في نهايات عام 2010: " إن الشعب السوري قام بالاستسلام، إن البلاد لن تتغير أبداً".

وبعد مرور عدة أيام بدأ التغير. موجة من الثورات تصاعدت في تونس وأخرى في مصر. واحدة تلو الأخرى. وأطاحت إرادة الشعب التي في الشوارع بالطغاة المحصنين.

كان حمزة كالنار مثاراً بامكانيات جديدة ويزور أقربائه في الولايات المتحدة في الوقت الذي حول فيه المنزل إلى مقر نشاط، هواتف ترن بدون توقف والقنوات التلفزيونية تبث المستجدات طيلة الليل والنهار. وفي فترة وجيزة، كانت العائلة بأكملها تكتب العرائض وتقوم بتحميل الفيديوهات التي تنادي من أجل الثورة. " أرجوكم تحلّوا بالأمل" هكذا حثت ابنة أخ حمزة المراهقة في مقطع فيديو أصبح ذو ضجة كبيرة على اليوتيوب، "يمكننا وضع حد لدكتاتورية الأسد ويمكن للعدالة أن تسود". وانتشرت الإحتجاجات من قبل أعداد من المتظاهرين الشجعان في الداخل السوري، إلى أن قامت الشرطة المسلحة بقمعها واحدة تلو الأخرى، فلزم معظم الناس بيوتهم. وراحت بعض الدول العربية بالتنكيت بأن السوريين شجعان فقط في المسلسلات التاريخية التي ينتجونها ، التي تحوي على مقاتلين رومانسيين من العهود القديمة.

*****

في شوارع حمص شعرت غيداء بمزاج جديد ، بدأ الناس بالحديث عن الإحتجاجات التي تجتاح الشرق الأوسط . بداية بهمسات مضطربة ومن بعد ذلك أصبحت حتى من دون البحث في الجوارعن المخبرين الحكوميين.

كان دان يعمل في الجزائر في ذلك الوقت وقد تناقشوا في احتمالية قيام الثورة. وقالت غيداء معربة عن وجهة نظر العديد من السوريين في ذلك الوقت: " سوف يقوم بشار بالتنحي عندما يدرك بأن الناس لا يحبونه"

خالفها دان الرأي: "أتذكرين حماة" وأصر قائلاً " سيكون هناك دماء"

لم يستطع أي منهما أن يتصور بأن الثورة قد بدأت في درعا، في بلدة على الأطراف الريفية السورية الجنوبية . بعد حوالي شهر من سقوط مبارك، ظهرت كتابات مناهضة للنظام على جدران مدرسة محلية وفي اليوم التالي قامت قوات حفظ النظام بتطويق المدرسة والقبض على العشرات من الأطفال . زار آباء الأطفال المحتجزين رئيس فرع أمن الدولة لإطلاق سراحهم.

وقال لهم رئيس الفرع ابن خالة الرئيس الأسد بأن ينسوا أطفالهم. " اذهبوا إلى منازلكم وانجبوا المزيد من الأطفال" وأضاف ساخراً " إذا كنتم لا تعرفون كيف، أجلبوا زوجاتكم وسوف نريكم كيف"

خرج بعض الناس بعد انقضاء صلاة الجمعة إلى الشوارع. سلاحهم الوحيد هو أصواتهم، دعوا إلى الكرامة والحرية والإفراج عن الأطفال.هرب بعض الناس بينما انضم إليهم البعض الآخر القادمون من منازلهم ، ففَتحت قوات الأمن النار مما أسفر عن إصابة العديد ومقتل إثنين. وفي اليوم التالي أصبح موكب الجنازة احتجاجاً سياسيا جذب أعداداً أكبر وأنتهى بأعداد أكبر من القتلى. ومع مرور الوقت تم الإفراج عن الأطفال مع وجود آثار التعذيب، وكانت المدن السورية تقوم بمظاهرات خاصة بها. وكانت قوات الأمن ترد بإطلاق النار أيضاً ، فتقلصت الثقة بالنظام مع كل رصاصة و دفين.

منذ عقود، ارتفعت تماثيل حافظ الأسد فوق كل جزء من البلاد بيده البرونزية. أشارت غيداء " اعتاد الناسُ على القول بأن اليد صُنعت خصيصا بحجم كبير لكي تشعر بأنها على وشك الإنهيار وضربك". وعندما حطم المتظاهرون إحدى التماثيل في درعا بأيديهم العارية ، حبس المتواجدون انفاسهم وعند تحريرها شعروا بشعور آخر من المسؤولية. كان السوريون تُسمع أصواتهم في كل مكان ، البعض يسمعها لأول مرة ويتعهد بأنهم لن تضيع مرة أخرى.

بعد مرور حوالي اسبوع على الثورة، نزل حمزة ضيفا على قناة بي بي سي الأخبارية المحكية باللغة العربية. وقال وهو غير قادر على اخفاء مشاعره : " كانت سوريا سجنا كبيرا لمدة أربعين عاما". ثم قامت الكاميرة بنقل تسجيل فيديو مرتج مسجل على أحد هواتف المتظاهرين يقول فيه حمزة متصدعاً: " لم أكن أتوقع رؤية اليوم الذي سيثور به الشعب السوري مطالبين بكرامتهم". ثم أضاف باكيا: " لقد انتهى النظام. لقد سقط النظام. لقد انتهت. لقد انتهت. يكفي" لقد كانت كلماته مؤلفةً من الحنين ومن الادراك. وعندما تحرر الناس من الخوف حتى من الموت ، و بأن النظام غير قادر على الصمود، فهم حمزة أن النظام مبني على صمت المجتمع وما تبقى هو مهمة ازالته بالكامل.

*****

دُعي حمزة ليصبح مشاركاً في برنامج إخباري للمعارضة مقره في لندن ، ومن بعد ذلك وقعت غيداء في الحب . أما دان فقد استقال من منصبه وعاد الى وطنه ليتفرغ كاملاً لأجل الثورة ، وقام مع آخرين بجمع التبرعات من داخل سوريا ومن خارجها وقاموا بتسليم المساعدات للعائلات الأكثر احتياجاً ،على الرغم من خطر الاعتقال الصارم .أصرت غيداء على مرافقة شقيقها في المدينة معللةً : " إن الرجل أقل شبهة بجوار امرأة " وكانا رفيقين لا يتفرقان سرعان ما أصبح كلاها فريقاً.

تجمعت العائلة في المساء لمشاهدة برنامج حمزة التلفزيوني . تسارعت نبضات غيداء مع اقتراب الساعة ، كانت مفتونةً في حديثه الصارم ، في الوقت الذي كان يقتل فيه الناس يومياً ، اكتسبت الشجاعة من صبره والأمل من ابتسامته الدائمة . انها ليست الوحيدة ، احدى المظاهرات أيضاً رفعت لافتة مكتوب فيها أن حمص تبنت حمزة ليكون ابنها ، وأوضحت غيداء " صوته في الخارج اشعرنا أقل بالوحدة " . وقال حمزة بوضوح كما يعرف كل شخص في الشارع ذلك ، ان لم يفعل المجتمع الدولي شيئاً ضد الاسد ، سوف يأخذ ذلك السوريين الى حمل السلاح في نهاية المطاف . في احدى الحلقات سؤل حمزة عن حياته الشخصية فلم يتحدث عن مدخراته او عن منزله ولا أيضاً عن الطلاق الذي تركه وحيداً.

كان حمزة يكبرها ثمانية عشر عاماً ، لكن غيداء مأخوذة بمشاعر الحنان والشوق لحمايته . قالت غيداء : " إن الشعور كان قوياً جداً " . ثم اضافت وهي تحدق للأسفل بخجل " أردت أن أقدم نفسي لهذا الشخص بالطريقة التي يقدم بها نفسه"

بحثت غيداء عن حمزة في الفيسبوك وارسلت له طلب صداقة ، ومرت أسابيع دون أي استجابة ، لكن مشاعرها تكاثفت . اختلست نظرة على صورته عندما لم يكن هناك أحداً في الجوار وراحت تتخيل نفسها في محادثات متبادلة معه . واخيراً اعترفت لأحد أولاد عمها أنه هنالك شخص تتمنى أن تتزوجه ، " من " يسأل ابن عمها مبهوراً ردت غيداء بخجل : " انه يعيش في الخارج ".استمرت لعدة ايام في الحديث متهربةً حتى اعترفت أخيراً بأن حبيبها هو حمزة. بادر ابن عمها في السؤال : " الشاب الذي على شاشة التلفاز ؟". "هل تضيعين وقتي؟ اعتقدت أنك كنتي جادة ! ." كانت غيداء جادة ، وكانت مقتنعة أنها سوف تتزوج حمزة. أو أنها سوف تبذل قصارى جهدها للقيام بذلك .

*****

أربعة أشهر مضت قبل أن يقبل حمزة طلب صداقة غيداء.وفي الأيام التالية تبادلا التدوينات المختصرة. نسخت غيداء كل رسالة على حدى إلى دفتر الملاحظات قبل القيام بحذفها. إن مراقبة المخابرات السورية لشبكة الانترنت واكتشاف أنها تتعامل مع المعارض المعروف ربما يقودها ذلك إلى السجن. يوثّق دفتر ملاحظات غيداء الرسائل التي تطلب

فيها من حمزة رقم هاتفه وأيضاً يسجل الرد الذي أجبر عليه. كان تاريخه 6 كانون الثاني من عام 2011، الساعة 03:48 صباحاً . اتصلت به بعد دقائق من استلامه.

كان حمزة في الأردن ذاك الوقت. تبادل هو وغيداء التحية المألوفة لكن غيداء لا تريد إضاعة الوقت فقالت له: " سوف أدخل صلب الموضوع، أريد الزواج بك".

كان حمزة مزهولاً وسألها: "عفواً !"

"أريد الزواج بك"

لم يكن حمزة غير معتادٍ على عواطف المعجبين الإناث. لكن هذه الجرأة كانت شيئاً جديداً.

أكملت غيداء "أنا أعيش في حمص، ويمكن أن أموت في أية لحظة. إن تزوجت بي، فسوف يكون لك زوجة في الجنة. ماذا لديك لتخسره؟"

بعد ذلك قُطع الإتصال. إن المكالمة الهاتفية استنزفت كل الرصيد في هاتف غيداء. تسللت إلى الغرفة التي كان دان نائماً بها وذهبت بصمت مع هاتفه المحمول وعاودت الاتصال بحمزة. تحدثوا إلى أن أُستنزف الرصيد كالمعتاد. تسللت في أرجاء المنزل حاملة جميع الأجهزة الخليوية المتاحة، متصلة بحمزة مراراً وتكراراً. وبحلول آخر الليل كانت محاطة بهواتف محمولة هامدة .

*****

اتصلت غيداء في تلك الليلة مرة أخرى بحمزة ، وفي كل ليلة على مدى ثلاثة أيام. أصبحت المحادثات أطول وأكثر خصوصية. لكن غيداء كانت تتحدث معه في باطن أفكارها لمدة طويلة جعلتها تشعر متفاجئةً بتلك المسافة التي تفصله عنها في الحياة الحقيقة. كانت عودته إلى لندن تقترب. لذا قالت لنفسها في الليلة الرابعة " يجب أن أتصرف بسرعة"، لقد قالت له بأنها ستأتي إلى الأردن للقاء به. لكنه غض النظر عن كلماتها كما لو أنها مغازلة غير جادة.

في صباح اليوم التالي قالت غيداء لوالدتها بأنها ستسافر لمقابلة العريس المحتمل ، فكانت ردة فعل والدتها منبهتاً تسألها لتعدّ على أصابعها واحدةً تلو الآخر: " هل أحتاج إلى أن أكتب قائمة بجميع طرق الموت بين حمص والأردن؟" ان اطلاق النار العشوائي يجعل من شراء الخبز بالأمر الخطير، كرحلةٍ طويلة عبر البلاد. فعندما كانت تمسح الشرفة قام أحد القناصين المتخفيين بإطلاق النار على أحد الجيران. فمن يعلم ما الذي ينتظر غيداء عند عبورها نقاط التفتيش الحكومية في طريقها إلى الحدود. لكن غيداء كانت مصممة . وقالت وهي أكثر إصراراً: " في سوريا يمكنك أن تُقتل في كل مكان وفي أي زمان، فما الذي يجب أن نخافه أكثر من ذلك؟"

تعبت غيداء من اعتراضات أمها التي لم تكن على وشك السماح لها بالسفر وحيدةً . بعد مضي سبع ساعات ومئتي ميل، وصلت غيداء ووالدتها إلى الأردن. إتصلت غيداء بحمزة من موقف الباص لكي تخبره بوصولها إلى عمان. لقد كان على وشك أن يُوقع الهاتف.

*****

قاد حمزة سيارته إلى موقف الباص حيث رصد امرأتين تجلسان خارجاً في البرد. ولاحظ أن الصغرى طويلة القامة ونحيلة، لقد اختارت بعناية غطاء رأسها المفضل، حريري أزرق مع دوامات من اللون الأرجواني والفوشي. ذات خدين ناعمين وعينان بنيتان كبيرتان. لم يتوقع حمزة بأنها جميلة للغاية.

كان يرافقه صديقه الذي أشار عليه وحذره قائلا: " إن هذه الفتاة إما مجنونة أو عميلة للمخابرات".

رأى حمزة غيداء وهي ترتجف من رياح الشتاء القارس الذي أتى بشكل غير معتاد. " لا تقلق" قال له صديقه "إنها فقط مجنونة".

*****

تبادل الأربعة التحية، استأجر حمزة غرفة لغيداء ووالدتها في المسكن حيث يقيم به صديقه. في اليوم التالي، تناولوا وجبة طعام سويةً وتشاركوا حديثاً مهذباً. لقد أشعلت الشرارة، لكن تمديد الزيارة لفترة أطول لم يكن مناسبا . ومع حلول الظهيرة، أخذ حمزة النساء إلى محطة الباصات لكي يعودوا إلى حمص.

اتصلت غيداء بحمزة فور وصولها إلى المنزل. كما فعلت في اليوم التالي واليوم الذي يليه. وسرعان ما كانوا يتحدثون عدة مرات كل يوم. في برنامجه، بدأ حمزة باستخدام بعض حركات اليد أو الكلمات لكل يوصل اشارات سرية من المودة. شاهدته غيداء مرتين تحت أصوات إطلاق النار، كانت تفهمه وتحمر وجنتاها. كانت تتطلع إلى طاقته التي لا يمكن كبتها. وكان متواضع أمام شجاعتها ويسقط على ضحكتها. أبتسم حمزة " لقد أصبح التحدث إليها كالإدمان ولقد أصّرت على أن تدفع ثمن جميع المكالمات". ارتشفت غيداء الشاي ببطئ وقالت: " لقد صرفت جميع مدخراتي في ثلاثة أشهر ".

في هذه الأثناء، كان العنف يقترب من حولها. قام قوات الأمن والشبيحة باللباس المدني بتفتيش المنازل، يعتقلون من يريدون ويسرقون أي شيئ يتمنوه. ذات مرة قاموا بأخذ جميع مجوهرات غيداء. وفي الأسبوع التالي قرعوا باب منزل صديقة غيداء، فنزعت أساورها الذهبية من معصميها ووضعتهم في حساء كانت تعده. " كان الضباط جائعون" هزت غيداء رأسها " فأخذوا الحساء فقط".

واصلت غيداء ودان رحلتهما في توزيع المساعدات حول المدينة. التقت غيداء بأهالٍ فقدوا أطفالهم وبأطفال فقدوا أطرافهم. أرامل شابات لا يعرفن كيف سيطعمن عائلاتهن. وزوجات شابات قد أعتقل أزواجهن فبتن لا يعلمن إن أصبحن من الأرامل أم لا. كان الثوار يصدون الهجمات . واستخدم المنشقون عن الجيش حول البلاد لأول مرة أسلحتهم للدفاع عن المتظاهرين المدنيين. ثم بدأوا بالعمليات الهجومية تحت مسمى الجيش السوري الحر.

برزت حمص موضع الثورة وكان جزءٌ من المدينة قد خضع لسيطرة المعارضين. وفي شهر شباط من عام 2012، شن النظام حملة مدفعية لإستعادة أو تدمير تلك الأحياء. كان الحي الذي تسكنه غيداء من أوائل الأحياء الذي تعرض للقصف. كان حمزة يسمع صوتها على الهاتف بصعوبة خلال غارات من القذائف المتفجرة. ولقد دعاها بأن تكون مراسلة خاصة في برنامجه. وعرفت نفسها بأنها حمصية حرة أو "فتاة حمصية حرة" وسؤلت بأن تبدي تعليقا حول فشل مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في حث الأسد على الاستقالة، كانت غيداء شجاعة وقالت : " ماتت الإنسانية في العالم، الشعب السوري يعتمد فقط على الله وعلى أنفسهم" كانت كلماتها تقشعر لها الأبدان باستثناء المذيع الذي كان يستمد قوته عند سماع صوتها. علق حمزة : "إن السوريين محاطون بالموت، لكنهم مازالوا صامدين". "التحدث مع أناس كالفتاة الحمصية الحرة يمدني بالأمل".

واصلت الدبابات والطائرات قصف حمص. حُرقت المباني. الجثث ممددة في الشوارع. وفي النهاية دخلت قوات النظام إلى المنطقة وقتلت من مدى أقرب. ندد الأمين العام للأمم المتحدة الإعدامات الميدانية والإعتقالات التعسفية والتعذيب من قبل الحكومة. مصور بريطاني استطاع بالكاد أن ينجو بحياته .صرخ باكيا " إنها ليست بحرب، إنها مجزرة".

تعطلت معظم الإتصالات الهاتفية والإنترنت . للمرة الأولى منذ حوالي ثلاثة أشهر، مر يوم دون أن يسمع حمزة فيه من غيداء. تحرك ببطئ في أروقة الاستوديو، واتصل بها مراراً وتكراراً لكن من دون جدوى.

وعلى الرغم من انقطاع التيار الكهربائي المستمر إلا أنه أتيح لغيداء فترة كافية كي ترى في تلك الليلة حمزة على التلفاز. خلال عام من سفك الدماء تغيرت الإبتسامة المتفائلة التي كانت ثابتة الى جبين عابس وكثير من التنهيدات المتكررة.

" ليس باستطاعتنا الحصول على المعلومات من داخل حمص المحاصرة" تنفس بصعوبة. "لقد فقدنا الإتصال مع مراسلتنا، الفتاة الحمصية الحرة".

شاهدت غيداء ذلك وهي غارقة بدموعها. كان القصف لا يرحم ، نزلت الى الشارع وانتقلت عبر الأبواب حتى نجحت باستقبال اشارة الهاتف الخليوي. كانت تهدف للإتصال بصديقٍ لها في دمشق، الذي سوف يستخدم هاتفاً آخراً للإتصال بشقيقة غيداء التي تعيش في الخليج. وشقيقة غيداء بدورها ستستخدم هاتفا ثالثا للإتصال بحمزة في لندن. حوّل الوسيطان هواتفهم الخلوية على وضعية مكبر الصوت حيث يمكن لحمزة وغيداء أن يسمع أحدهما الآخر. أربعة مكالمات تجري خلال ثلاثة دول، وبالطبع وصلت الرسالة بوضوح.

"هل أحتاج بأن أطلب الزواج منك مرة أخرى؟" صاحت غيداء عبر الهاتف ، رغم أنها تعرف الجواب مسبقاً. قال لها حمزة بأنه سينتظرها في الأردن فجاءت فوراً عندما سنحت لها الفرصة بالهرب عند هدوء القصف. تزوجا بعد فترة وجيزة في حفل صغير. وفي تركيا وبعد انقضاء يومين من شهر العسل كانت غيداء بالفعل حاملاً.

أمضى الزوجان الشهور التالية في مخيمات اللاجئين على طول الحدود السورية . صور حمزة تقريرا عن الجيش السوري الحر، بينما بنت غيداء صداقات مع النساء في المدينة. وأبقت أيضا على الإتصال مع حمص. دُمّر منزلها أثناء الحصار، الذي يقيم فيه خمسة من أشقاءها المتزوجون . ثم جاءت الأخبار بأن دعائها لم يُستجاب أبداً ، فلقد أُطلق النارُ على دان.

لم يكفّ دان عن عمله في في نقل المال والإمدادات في أنحاء المدينة، وفي احدى المرات تم توقيفه وأصدقاءه على أحد نقاط التفتيش ، وقامت قوات النظام بإعتقال واحد من المجموعة. ذهب دان واصدقائه مبتعداً قبل أن يأتيهم الدور ، فقد أصبح دان الآن أحد المطلوبين فاختبأ في منزل أحد الأقرباء. " لم يكن يعلم بأن أحد الجيران كان مخبرا للنظام" أوضحت لي والدة غيداء. فأثناء خروجه في صباح أحد الأيام في شهر آذار، أُطلق عليه النار فأصيب في رأسه ودخل في غيبوبة وفارق الحياة بعد أسبوع.

في شهر نيسان انتقلت غيداء وحمزة إلى الأردن ، وقامت غيداء بالإجراءات اللازمة من أجل انضمام أطفالها إليها، لكن والدهم رفض إعطائهم الموافقة اللازمة من أجل جوازات سفر. لم يكن لديهم خيار آخر سوى التسلل بطريقة غير شرعية كما فعل مئات الآلاف من اللاجئين السوريين. سافر ذو التسع سنين والثالثة عشر عاما في حافلة مع عائلات أخرى إلى الحدود ومشوا قرابة الساعة في الظلام. طيلة الطريق كانوا يتأملون بأن ترضى شرطة الحدود السورية الرشوة التي ستُدفع لهم، وأن لا تقرر بإطلاق النار عليهم. وعند منتصف الليل، وصلوا بسلام إلى الجانب الآخر من الحدود. وبعد فترة قصيرة لحقت بهم جدتهم بالطائرة.

*****

عندما التقيت بهم، كانت الأجيال الثلاثة تعيش في منزل متواضع في عمان ، وكانت أخبار سوريا تصدأ المنزل بينما كان الأطفال يكتبون واجباتهم المنزلية في كل ليلة. لقد تابعوا تقارير المعارك ساعة بساعة، و أسماء القتلى.

حذرت التغطية الإخبارية من ازدياد نسبة الجماعات المتطرفة في أعداد الثوار. وكانت غيداء مقتنعة بأن الاديولوجية الدينية تبقى في الهامش بالنسبة لما ترى بأنه ثورة كرامة. " يشعر الناس باليأس في استخدام الأسلحة بغية إسقاط بشار" أوضح حمزة. " إن لم يحصلوا على الدعم من الغرب، فسوف يأخذونه من أي مكان في وسعهم". في آخر رحلة تصوير له داخل سوريا، قضى عدة أيام مع المقاتلين الذين يرتدون اللحى الطويلة ويرددون الشعارات حول الحرب المقدسة. على الرغم من ذلك كان بعضهم بالكاد يعرف كيف يصلي وكان الجميع يمطر حمزة بأسئلة عن شكل الفتيات في أوروبا. عندما ألحوا عليه، قالوا له بأنهم يتبنون الرموز الإسلامية كنوع من التصريحات. بعضهم اعترف بأنهم يقدمون أنفسهم ليصبحوا جهاديين من أجل الحصول على الأسلحة من الجماعات المؤيدة للإسلاميين في الخليج

الذي كان المورد الرئيسي للثوار " لا يمكنكي إلقاء اللّوم على هؤلاء الأشخاص، نظرا لما مروا فيه " تنهد حمزة " لكن إذا استمرت الحرب فسوف ينتصر المتطرفون"

تمتلئ عينا والدة غياء بالدموع في كل مرة تفكر فيها بدان، وهذا ما تفعله طوال اليوم. تفكر الآن غياء بالمستقبل. " يقول بعض الناس بأنه من الخطأ أن تتزوج وهنالك العديد من الناس يعانون"، فكرت ملياً وهي تشعر بركلات صغيرها " ولكن من المهم أننا مازلنا نواصل العيش". كانت أثمن هدية تلقتها عند زواجها هي ملاحظة كُتبت بخط يد صديق في مخيم تركيا:

"بارك الله زواجكما أخي حمزة.وإن أتى في خضم الثورة والحزن، فهو تمرّدٌ آخر على آل الأسد، ولإنك تقول لهم لن نستسلم للحزن بل رغما عنكم سنفرح ونتجدد وننجب أطفالاً للحرية القادمة. "